

جمعية المقاومين التونسيين

المؤتمر الأول - 10 أفريل 2016 -

كلمة السيد حامد الزغل رئيس جمعية المقاومين التونسيين

سيدي كمال الجندوبي، وزير العلاقة مع المنظمات الدستورية والمجتمع المدني،

إنّ جمعية المقاومين التونسيين من أجل الاستقلال تشكركم على تفضلكم بالإشراف على الجلسة الافتتاحية لمؤتمرها. ففي وجودكم معنا دليل على الترابط المنسجم بين جيل الثورة الأولى، الثورة ضد الاستعمار، وجيل الثورة الثانية، الثورة ضد الاستبداد.

سادتي الذين شاركتكم بامتياز في بناء دعائم الدولة التونسية، بعد أن ناضلتم من أجل الاستقلال. سيداتي وسادتي ممثلي المنظمات الوطنية والمؤسسات الإعلامية. باسم جمعية المقاومين التونسيين، أشكركم جميعاً على تلبيتكم دعوتنا. ففي حضوركم معنا في مؤتمرنا الأول تشجيع ودعم لجمعيتنا.

إخواني وأخواتي المقاومين، اسمحوا لي أن أترك جانباً الحديث عن استحقاقاتكم واستحقاقات أرامل المقاومين والشهداء وأبنائهم، لأنكم ممثلي معتبرونها زهيدة، مقارنة بحق الوطن علينا. اسمحوا لي إذن أن أتكلّم عن ماضينا بمنظار الحاضر، وأن أبدي بعض الخواطر حول حاضر تونس ومستقبلها بالرجوع إلى تجارب الماضي.

كنا مراهقين أو شبانا في أربعينات وخمسينات القرن الماضي. اندفعنا في ثورة التحرير دون أن ننتظر تحرك المغرب أو الجزائر. كانت تقابلنا قوات فرنسية، من بينها فوج من اللفياف الأجنبي وثلاثة أفواج من المظليين قديم كلها من الجزائر. وصل عدد جنود الاحتلال إلى مائتين وخمسين ألف جندي، تضاف إليهم قوات البوليس، وميليشيات اليد الحمراء، ومختلف المتطوعين من الجالية الفرنسية.

كنا ندرك التفاوت الكبير بين إمكانياتنا وقوات العدو. لكننا كنا مقتنعين بالاستراتيجية البورقيبية التي تعتمد على الاضطرابات في تونس وعلى رد فعل سلطات الحماية من قمع وبطش، لتدخل الأمم المتحدة في قضيتنا. ويحدث هذا التدخل حماساً فينا وإصراراً منا على الصمود. فيقع تفاعل إيجابي بين الثورة في تونس والضغط على فرنسا في نيويورك. ويكون هذا الضغط أشدّ وقعاً عندما تساندنا دول كبرى حليفة لفرنسا من جهة، ونتقدم بمطلب معتدل، وهو الاستقلال الداخلي من جهة أخرى. فبفضل هذه العوامل الثلاثة: المقاومة الشعبية والمساعدة الدولية وحكمة القيادة، أمكن لتونس أن تستزع استقلالها الداخلي، ثم استقلالها التام.

في نفس اليوم الذي تم فيه الإعلان عن الاستقلال، خاطب المجاهد الأكبر شعبه قائلا: "إننا خرجنا من الجهاد الأصغر ودخلنا مرحلة الجهاد الأكبر قصد اللحاق بركب الحضارة." وأضاف أن عملا طويلا ينتظرنا. وهو يستهدف صعود تونس إلى مستوى الدول المتقدمة، ضمنا لعدم رجوع الاستعمار.

و شرعنا في مقاومة التخلف، سائرين نحو الهدف الأسمى الجديد. كنا نعلم أنه بعيد المنال، وأن العقبات في طريقه كبيرة متنوعة، خاصة في فجر الاستقلال. في تلك السنين، لا يزال الجيش الفرنسي مرابطا في أرضنا، والجيش الجزائري بصدد الاستقرار على الحدود. وكان شتاء سنة 55-56 قاسيا بصفة غير معتادة. فاستفحل الجوع، وكثر عدد الأطفال المشردين، وانتشرت البطالة بصورة مهولة. ومن جهة أخرى، سلك الفرنسيون المقيمون ببلادنا سياسة الأرض المحروقة. غادر معظم الفنيين الفرنسيين تونس تعجيزا للنظام الجديد. وهرب الفرنسيون رؤوس الأموال بأحجام تتزايد من سنة إلى أخرى. وأمسكت الشركات الفرنسية عن الاستثمار، ونزل حجم الأسمدة في أراضي المعمرين.

رغم كل هذا، صدرت مجلة الأحوال الشخصية. وبنيت المدارس في كل مكان، مع الحرص على أن يكون التعليم عصريا، من شأنه أن يفتح عقولنا وبنائنا. ثم تحقق جلاء الجنود والمعمرين الفرنسيين من الأراضي التونسية. في المجال الاقتصادي، لم يكن بورقية لا يمينيا ولا يساريا ولا وسطيا. كانهم النجاعة ولو باتخاذ وسائل متطرفة. لم يكن حبيس النظريات، خاصة عندما تقسم الشعب إلى فئتين متناقضتين فمتصارعتين. كان يجذب ما أسماه بالاقتصاد المتضامن. لذلك استهوته فكرة التعاضديات، فتبناها. لكنه أدرك بعد تجارب ألها غير مجدية في ظروف تونس. فتركها.

وتقدمت تونس أشواطاً في طريقها نحو الهدف الأسمى. لكن المسيرة تعطلت بسبب شيخوخة بورقية ومرضه الطويل. وتفاقم الأمر في نظام بن علي الذي كان يتبجح بأنه أحدث معجزة في المجال الاقتصادي، لأن النمو وصل إلى 5 في المائة. والحقيقة أن الهوة الاقتصادية بين تونس والاتحاد الأوروبي أخذت في الاتساع. ومن الضروري أن يتجاوز النمو 7 في المائة لتقليص الفارق بين تونس والدول الأوروبية.

واستبشرنا خيرا بثورة 17 ديسمبر 14 جانفي. وشاهدنا على شاشات التلفزة شبابا تبدو من خلال تحاليله كفاءته وقدرته. فشعرنا بالاطمئنان على مصير تونس. وقلنا إن بلادنا ستشرع من جديد في السير نحو اللحاق بركب الأمم المتقدمة، وسيكون التقليل من البطالة ومن الاختلال التنموي بين الجهات هدفا مرحليا في الطريق نحو الهدف الأسمى. لكن ضياعنا أربع سنين حدثت خلالها اغتيالات سياسية، وبرزت عقول جامدة، وتواجد إرهابيون في الجبال والمدن، وتداولت حكومات وقتية. فلم تنطلق مسيرة التقدم نحو الهدف المنشود.

و لما تمت الانتخابات التشريعية والرئاسية، قلنا إن السير سوف يُستأنف بسرعة. وسوف تُسن الإصلاحات الضرورية، ويُعدُّ مخططُ تنموي يندرج في إطار نظرة استشرافية، وينسجم مع هدفنا الأسمى. ولكن، وبمجرد أن تولت الحكومة السلطة، اندلعت اضطرابات في أماكن مختلفة. ولم تتصل أحزاب الائتلاف الحاكم بالشعب لإقناعه بأن الحكومة ترمي فعلا إلى التقليل من البطالة و من الاختلال الجهوي. وكانت صدمتنا قوية من تصرفات بعض الساسة.

نأمل أن يشعروا في آخر الأمر أن مسؤوليتهم كبرى، إذ أنهم نُحِبُّ جيل الثورة الثانية. ونأمل أيضا أن يُدركوا أن الاختلال بين الجهات وتفاقم البطالة هما بمثابة الشجرة التي تُخفي الغاب. فالاختلال التنموي بين تونس والدول المتقدمة هو أكبر وأعظم. جامعاتنا في مؤخرة قائمة الجامعات في العالم، و معدل دخل المواطن التونسي هو حاليا عشر مرات أقل من معدل دخل الفرنسي. ومن الضروري أن يرتفع معدل نمونا إلى 7 أو 8 في المائة طوال سنوات عديدة، كي تضيق الهوة التنموية بيننا وبين أوروبا، ونقضي في نفس الوقت على تراكم البطالة والاختلال بين الجهات.

لا شك أن معدل النمو المطلوب ليس يسير المنال. وقد نجد انهماكيين يؤكدون أن الوصول إليهم مستحيل. ليتأملوا في كوريا الجنوبية. كان متوسط دخل المواطن الكوري يساوي متوسط دخل التونسي في منتصف القرن الماضي. أما اليوم، فإننا لإنتاج الصناعي لكوريا الجنوبية يغزو كافة دول العالم. يقول الشكاكون أننا لا نقدر على مقاومة التخلف ومقاومة الإرهاب في نفس الوقت. نحب أن كوريا الجنوبية تخوض منذ عشرات السنين حربا ضد جارها الشمالية، وهذا لم يمنعها من التقدم في كل المجالات. عرفنا أيضا في عهد الاستعمار شكاكين وانهماكيين. كانوا يستهزئون منا قائلين : "الداطرة يريدون هدم الجبل بقادوم".

وهدمنا الجبل. وظهر أن طينة التونسي لا تختلف عن طينة الكوري الجنوبي. فقد كنا في محيطنا المغربي والإفريقي سباقين في خوض معركة التحرير. وكنا سباقين في سن مجلة الأحوال الشخصية. وكنا في العالم العربي سباقين في الثورة ضد الاستبداد. لكن أيضا سباقين في انتصارنا على التخلف والإرهاب.

لن أتكلم في آخر كلمتي عن الإرهاب. فإن شعبنا ودولتنا سيقضيان عليه لا محالة. أما التخلف، فإن مقاومته تستدعي جهادا أكبر وأطول، وتضافر العوامل الثلاثة التي انتصرنا بها في معركة التحرير: وهي الجهد الوطني، والعون الخارجي، وحكمة القيادة.

ففي الإطار الوطني، ينبغي قبل كل شيء أن يكون الشعب التونسي واعيا بأهمية الهدف الأسمى، وأن يتجند في سبيل تحقيقه، مثلما أجمع في عهد الاستعمار على مطلب الاستقلال، وتجدد من أجله. لكن الوصول إلى معدل نمو بين 7 و 8 في المائة يتطلب في نظري توفر ثلاثة شروط إضافية استثنائية.

أولاً: قد يكون من مصلحة الوطن العليا أن يفكر كل منالاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة في المشاركة في الحكومة، وفي مداولاها وقراراتها، مثلما كانا موجودين في حكومة بورقيبة الأولى.

ثانياً: إن الوصول إلى معدل نمو مرتفع يستدعي عدم توقف الإنتاج. ففي خسارة مثقال ذرة من الإنتاج إساءة للوطن. لا يشك أحد في سوء حالة البطالين. كما لا يشك أحد في أن ظروف تونس الحالية لا تيسر الحل السريع لمشاكل البطالة. وهذا تعلمه الفئات الضعيفة، وتعلم أنها مدعوة إلى التضحية والتحلي بالصبر.

ثالثاً: في المقابل، ندعو أصحاب رؤوس الأموال إلى أن يبادروا بإحداث المشاريع التنموية في الجهات المهمشة، دون أن ينتظروا توفر المناخ الجيد. نقر أننا نرغب منهم أن يجازفوا. لكنني هذه المجازفة نصيهم من التضحية. لينسجوا على منوال رجل الأعمال الذي أحدث مشروعاً في منطقة نائية، فوجد من سكانها الترحاب والحماية.

أما من الخارج، فبالإضافة إلى استثمارات ضخمة، نحن في حاجة إلى هبات مالية كبيرة لفائدة ميزانية الدولة، حتى نضعف النفقات لفائدة التعليم والبحث العلمي والثقافة، ونحوّل العقول الجامدة إلى عقول منفتحة. لكن ما وصل إلى تونس من هبات منذ اندلاع ثورة الحرية والكرامة هو دوناً ما نلنا. نحن في حاجة إلى دعم مالي في مستوى برنامج مرشال، الذي تلقته دول أوروبا الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية. كان ذلك غداة الحرب العالمية الثانية. وقتها كانت فرنسا مثلاً في حالة خراب. وكان الشيوعيون يمثلون فيها تياراً قوياً يعمل على جر البلاد إلى المعسكر السوفييتي. لكن الحكومة الفرنسية تغلبت على الجموع الموالية إلى موسكو، وانضمت إلى الحلف الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة، مقابل الاستفادة من "برنامج مرشال"، الذي مكن من إعادة بناء فرنسا في وقت قصير.

حكمة القيادة: هذا المعطى التاريخي يبين أن العلاقات بين الدول تحكمها المصالح. لذلك يستبعد أن نحصل على دعم مالي ضخم يستجيب لحاجتنا دون مقابل. وهنا تأتي حكمة القيادة التي تعرف كيف تُغلب العقل على العاطفة، وتقدم الأهم على المهم، وتوازن بين الأخذ والعطاء، حتى يكون ما نأخذه أهم بالنسبة إلينا مما نعطيه، ونضمن حقاً لأحفادنا وأبناء أحفادنا مستوى جيراننا الأوروبيين في كل المجالات. هذا ما نطمح إليه — نحن المقاومون — لفائدة شعبنا، ونحن اليوم على قاب قوسين أو أدنى من الالتحاق بالرفيق الأعلى. نرغب بكل جوارحنا أن يضع الجيل الحالي هدفاً للالتحاق بركب الحضارة نصب عينيه، وأن يسير بثبات في سبيل تحقيقه، حتى تكون تونسنا حقاً حرة مستقلة كريمة إلى الأبد.